دار الضياء للميزة لتحفيظ القرآن الكريم (٤)

كتاب الضياء
سلسلة تصدر عن
الضياء
دار الضياء للميزة لتحفيظ القرآن الكريم

أدب المعاملة
في السيرة النبوية

أ . د . سليمان بن حمد العودة
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القصيم

وقف الشيخ
سليمان بن عيادة العيادة
رحمه الله رحمة واسعة

ح دار الضياء الخيرية ؛ ١٤٢٧ هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة ، سليمان بن حمد

أدب المعاملة في السيرة النبوية ./ سليمان بن حمد العودة.- بريدة، ١٤٢٧هـ.

٦٤ ص، ١٧ X ٢٤ سم

ردمك: ٥ ـ ٣٩٩ ـ ٥٦ ـ ٩٩٦٠

١ ـ السيرة النبوية أ . العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٢٧/٤٦٧٨

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٤٦٧٨

ردمك: ٥ ـ ٣٩٩ ـ ٥٦ ـ ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

لماذا الحديث عن هذا الموضوع؟

الحديث عن أدب المعاملة أمر في غاية الأهمية، وتشتد الحاجة إليه كلما ابتعد الناس عن المنهج الرباني، وكلما طغت الماديات في حياة الأُمم والشعوب، وتتأكد الحاجة أكثر إذا كان له مساس بالنفس ومراعاة أحوالها، وكان مستجيبًا لنزعاتها مع التقويم والتهذيب والسمو.

فإذا انضاف إلىٰ ذلك كله كون سيرة المصطفى ﷺ هي المورد لهذه الدراسة، فلا مراء في شدة الحاجة وفقر المكتبة وحاجة الأجيال عامة لمثل هذا اللون من الدراسة، فالناس دائمًا يتلمسون الدواء لدائهم، ويبحثون عن العلاج لأسقامهم، ويتلمسون الطريق الأسلم لمسيرتهم، ولن يجدوا علاجًا شافيًا بغير القرآن، والقرآن خلق النبي عليه الصلاة والسلام، ولن يسعدوا بعلاج أزكىٰ وأطهر وأنفع من علاج محمد ﷺ ومهما طال سيرهم، واجتهد ربان سفينتهم، فلن يهتدوا إلى طريق أسلم وأقوم من طريق الله الذي تمثله محمد ﷺ وأمر البشرية باقتفائه حين قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام، آية: (١٣٥).

أجل لقد تاه الدليل وتخبطت الأمم والشعوب في مسيرتها، وعرضت مناهج، وانبرىٰ لذلك زعماء ومفكرون، وكل يزعم أن الحل بيده، وأنه المنقذ وحده، فلا يفتأ الناس أن يتشبثوا بهذا المنهج أو يُسْلموا أنفسهم لذلك الرائد، إلا ويكتشفون أن البضاعة مزجاة، وأن المسيرة معوجة، وأن التوجيه أرعن!! وما تزال هذه حالهم وهم بمنأىٰ عن التوجيه، وعطش إلىٰ المسيرة الهادئة الأصلية، والسيرة النبوية العطرة.

وإذا كان هناك ما يفسر ـ دون تبرير ـ للأمم الكافرة هذا التخبط الأعمىٰ حيث يغيب عنهم أصلاً بنيات الطريق، وحرموا بكفرهم الدليل والهادي؛ فليس من عذر أمام أمة الإسلام، وهي تشارك الآخرين أحيانًا شرودهم، وتشترك معهم أحيانًا في تخبطهم وقلة بضاعتهم. والمورد الزلال يَروي ظمأهم، والهادي والدليل كامن في إسلامهم ومُدوَّن في تأريخهم.

* * *

دواعي الحديث

وفوق ما تقدم فيدفعني للحديث عن هذا الجانب في السيرة عدة أمور منها:

١ ـ **أن فقه السيرة النبوية مطلب ملح**، فالرسول ﷺ محل القدوة والأسوة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾[1]، وليس معرفةَ بُعوثه وسراياه ـ مثلاً ـ بأولىٰ من معرفة كريم خلقه وأدب تعامله.

٢ ـ **الممارسات العملية الخاطئة في أدب التعامل مع الآخرين** حيث يبدو الجفاء والشدة، وعدم الاهتمام بمشاعر الآخرين وتقدير منازلهم أحيانًا سلوكيات غير منضبطة تحتاج إلىٰ دراسة وتقويم، والأنكىٰ من ذلك والأمر حين يُمارس الخطأ علىٰ أنه عبادة يَتَقرب المرء بها إلىٰ ربه، وهو في حقيقة الأمر مخالفة وتجاوز لهدي سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ **ولعله غير خاف أن الدعوة إلى الله ليست قصرًا على الكلمة المسموعة ـ مع أهميتها ـ أو الموعظة البليغة ـ مع الحاجة إليها ـ** فللمعاملة بالحسنىٰ أثرها في توجيه الآخرين،

---

(١) سورة الأحزاب، آية: (٢١).

وللسلوك الخير المتميز وقعه في كسب قلوب الناس أجمعين. . وهذه وتلك خليقة بالدراسة والبيان.

٤ ـ **وفي مقابل ذلك هناك نتيجة عكسية تحتم الوعي في هذا الجانب**، وهي أننا أمة الهداية، ومنهجنا هو الأجدر في هذا الوجود، وتقع الفتنة وتكون الانتكاسة حين نكون نحن نماذج دون المستوىٰ، فلا يفهم الناس أن هذا من تقصيرنا ونتيجة خاطئة لفهمنا، بل يُؤصَّل علىٰ أنه ضمن قواعد هذا الدين، ويُتَّهم الإسلام، والإسلام منه بريء، ويفر الناس منه كما تفر الحمر المستنفرة، وهذا جزء من الفتنة التي استعاذ منها المسلمون بدعائهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1].

٥ ـ **ويضاف إلى ذلك أن السيرة النبوية تَحفُل بنصوص غاية في الأهمية في هذا المجال**، قد تغيب بعضها أو جلُّها عن أعين الناس، نظرًا لأن التركيز في دراسة السيرة ـ مؤخرًا ـ منصب علىٰ جوانب المغازي والبعوث وما حولها، ويبقىٰ الإطلال علىٰ جانب «الشمائل» قليلاً، وتناوله بالدراسة والبيان محدودًا.

ومع كون «الشمائل» قد أفردت بالكتابة لدىٰ عدد من كتبة السيرة المتقدمين، فما نحن بصدد الكتابة عنه «**أدب المعاملة في**

---

(١) سورة الممتحنة، آية: (٥).

السيرة النبوية» يحتاج إلى استدلال من هذه «الشمائل» بل يحتاج إلى رصد دقيق خارج إطار الشمائل، فالرسول ﷺ كان نموذجًا للتعامل في أحوال الحرب والسلم معًا، ومن هنا يتعين علىٰ الباحث استخراج هذه النصوص في المغازي والبعوث وفي حياة الرسول ﷺ كلها، وهذه وإن كان فيها نوع من الجهد إلا أنها مفيدة حين تجمع.

وجمع هذا المتفرق والتأليف بينه ـ قدر الإمكان ـ هدف وداع للبحث في هذا الموضوع.

* * *

خلق محمد ﷺ في القرآن والسنة

أولاً: في القرآن الكريم:

لقد زكىٰ الله محمدًا ﷺ، وأدبه فأحسن أدبه، وأثنىٰ علىٰ خُلُقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[1][2].

وامتن على المسلمين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، أحسنهم معدنًا، وأزكاهم خلقًا، يعز عليه ما يحرجهم، ويحرص على ما ينفعهم، الرأفة ديدنه، والرحمة سجيته، كما وصفه ربه بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[3].

لقد جمع الله القلوب على يديه، وشمل الناس كلهم بعطفه وبره ورحمته، كان يعفو ويصفح ويتجاوز عن المسيء، ويعتذر للمخطئ، وبهذه وتلك ألفته القلوب، وجمع الله به الشمل، ولو لم يكن كذلك لم يستقم له الأمر، ولا انفض الناس من حوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ

---

(١) سورة ن، آية: (٤).

(٢) قال عطية العوفي: أدب القرآن، وقالت عائشة: كان خلقه القرآن. [شرح السنة، للبغوي (١٣/ ٢٣٤)].

(٣) سورة التوبة، آية: (١٢٨).

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾(١).

وحين خالف هذا المنهج، وظن أنه مجتهد في سبيل دعوة الملأ، وأشاح بوجهه عن ابن أم مكتوم الأعمىٰ ـ رضي الله عنه ـ وعبس، ولم يلتفت له، جاءه البلاغ المؤدب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ . . .﴾(٢).

لقد كان المصطفى ﷺ رحمة عامة للناس أجمعين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾(٣)، وقد طبع هذا السلوك في صحابته الذين وصفهم الله بقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾(٤).

ويشهد المنصفون أن كل معاني الرحمة تتجلىٰ في رسالة النبي ﷺ، وهو يتمثلها بسلوكه ودعوته، فما من معروف إلا وقد أمر به، ولا منكر إلا نهىٰ عنه، أحلَّ الطيب، وحرَّم الخبيث، وقد رفع الله عن الأمة به الإصر والأغلال، التي كانت على من قبلهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا

(١) سورة آل عمران، آية: (١٥٩).
(٢) سورة عبس، الآيات: (١ ـ ١٢).
(٣) سورة الأنبياء، آية: (١٠٧).
(٤) سورة الفتح، آية: (٢٩).

عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ . . . ﴾[١].

ويسر الله به الدين، ودفع به الحرج ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٢].

ويشهد له ربه بحسن البلاغ، وصدق البشارة، ومعذرة الإنذار، وحكمة الدعوة، ثم يتوج ذلك كله بكونه سراجًا منيرًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[٣].

ثانيًا: في السُّنَّة النبويَّة:

أما السنة النبوية فتزخر كتبها بعدد من النصوص المؤكدة لحسن خلقه ﷺ، حثًّا وامتثالاً.

يقول النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «**البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**» رواه مسلم[٤].

---

(١) سورة الأعراف، آية: (١٥٧).
(٢) سورة الحج، آية: (٧٨).
(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: (٤٥ ـ ٤٦).
(٤) انظر: «صحيح مسلم» (٤/ ١٩٨٠).

وفي الحديث المتفق على صحته يقول عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «**إن خياركم**»، وفي رواية: «**إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»(١).

ويقول ﷺ: «**ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء**» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وفي رواية أخرىٰ قال ﷺ: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**» رواه الترمذي وأبوداود، وإسناده حسن(٢).

ويكفي أن يُعلم أن بعثته ﷺ كانت لإتمام مكارم الأخلاق ومحاسنها، ففي الحديث: «**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**» أخرجه الإمام مالك ـ رحمه الله ـ في موطئه، وفي سنده انقطاع، ولكن للحديث شواهد يرتقي بها إلىٰ درجة الحسن، ولهذا قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره(٣).

وبعثته رحمة للعالمين، كما في القرآن الكريم ـ وفي صحيح

---

(١) «صحيح البخاري» (٧/ ٨١، ٨٢)، «مسلم» (٤/ ١٨١٠).
(٢) انظر: «جامع الأصول» (٤/ ٥، ٦).
(٣) «جامع الأصول» (٤/ ٤) مع الحاشية.

السنة، قيل لرسول الله ﷺ: أدع على المشركين، قال: «**إني لم أُبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة**»(١).

ومن رحمته التيسير على الناس وعدم الانتصار لنفسه ما لم تنتهك محارم الله، فهذه أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: «**ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظُلمها قَطُّ ما لم ينتهك من محارم الله شيء... وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثمًا**» رواه البخاري ومسلم وغيرهما(٢).

ويكفي أن تكون وصيته ﷺ لأصحابه بحسن الخلق وهو القائل لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: «**يا معاذ، أحسن خلقك للناس**» أخرجه مالك في الموطأ.

وفي رواية أخرى عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، علمني ما ينفعني؟ قال: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**» رواه أحمد والترمذي وغيرهما بإسناد حسن، وهو يشهد لما قبله، فالحديث السابق حسن بطرقه وشواهده(٣).

وبالجملة فأخلاق محمد ﷺ وجميل سيرته برهان على نبوته، ودليل على عظمته، وقائد إلى الإيمان به وبما جاء به، وفي هذا

---

(١) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٠٧).

(٢) «مختصر الشمائل» للترمذي ص(١٨٣).

(٣) «جامع الأصول» (٤/ ٤) مع الحاشية.

يقول القاضي عياض رحمه الله: «وإذا تأمل المنصف جميل أثره وحميد سيرته، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله وَشَاهَدَ حاله وصوابَ مقاله، لم يمتر في صحة نبوته وصدق دعوته»، ثم قال: «وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والإيمان به... ثم ساق قصة الحبر عبدالله بن سلام حين أسلم وقال: فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كاذب»[١]

ألا إن سيرته ﷺ طريق لخيري الدنيا والآخرة، وفي هذا يقول ابن حزم رحمه الله: «من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتدِ بمحمد ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيرته ما أمكنه...»، وينتهي ابن حزم إلى القول: «فلو لم تكن له ﷺ معجزة غير سيرته لكفى»[٢].

ثالثًا: في السيرة النبوية:

ومن النصوص النظرية ننتقل إلىٰ السيرة العملية لنؤكد بها علىٰ كريم خلقه، وطيب معشره، وحسن تعامله، سواء أكان ذلك بالنظرة المعبرة، أم بالابتسامة اللطيفة، أو بالكلمة الطيبة، أو

---

(١) رواه الترمذي، وانظر: [القاضي عياض: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ» (١/ ٣٤٢)].

(٢) «الفِصَل في المِلَل والنِّحَل»، (٢/ ٩٠) دار المعرفة.

بالمزاح المؤنس، أو بالتوجيه الكريم، أو بتشجيع ذوي المهارات، أو اعتبار إكرام كريم القوم وذوي المقامات، وسيتضح لنا من خلال سيرته عليه الصلاة والسلام أنه يعامل المرأة معاملة خاصة، وأن له مع الغلمان مواقف مناسبة، وله مع ذوي الوجاهة والشأن أسلوب مميز، كما أن له مع أهل السوء والجهل طريقة ومنهجًا، وليس بمستغرب أن يكون له مع الخاصة وأهل التقىٰ لهجةَ صدق وطيبَ معشر، ولم تضق سيرته بمعاملة خاصة لأهل المواهب وذوي القدرات، واستوعبت سيرته عليه السلام أصناف الناس كلهم، فكان يعامل كلا بما يناسبه، هدفه من وراء ذلك كله دعوة الخلق إلى الله، وترغيبهم في الإسلام، وامتلاك قلوبهم لحب الخير والحق، وبغض الشر والباطل.

وقد يتبدىٰ لقليل العلم والنظر، ضعيف الفقه والتأمل، أن بين هذا الأسلوب أو ذاك نوعًا من التناقض والاضطراب، وبين هذه الطريقة في التعامل، أو تلك قدرًا من المداهنة والمجاملة، والحق أن هذه الأنماط من أساليب التربية تمثل بمجموعها منهجًا يحتذىٰ في التعامل، وشرعة يجب التحاكم إليها عند التنازع، ومنارة يستضاء بها حين يدلهم الظلام.

وهي في النهاية تصب في مصب واحد، وتلتقي عند هدف نشر الخير والدعوة إليه، وتقليص الشر، والحد من انتشاره، تستخدم لها كافة الوسائل والأساليب المباحة شرعًا، حسب ظروف الزمان

والمكان، ويراعىٰ فيها طبيعة الأشخاص وأقدارهم ونفسياتهم وظروفهم.

ولمزيد من الإيضاح كذلك سأعرض الفرق بين المداهنة المحرمة والمداراة المندوبة، في مبحث مستقل، وهو فرق دقيق، ومزلة تحتاج إلىٰ فطنة لبيب، وإذا كان التنبه لهذا الفرق يهدي الإنسان إلى طريق الخير ويبصره بسنة المصطفى ﷺ في التعامل، فإن اللبس فيهما يوقع المرء في تناقض لم يأذن به الشرع، وينأىٰ بصاحبه عن الاقتداء بسنة المصطفى ﷺ.

* * *

الكلمـة الطيبـة

إذا كان مخرج الكلام واحدًا، فغني عن البيان أن للكلمة الطيبة وقعها في النفوس فهي جسر مودة، وسبب أُلفة، وأسلوب وئام ومحبة، أما الكلمة السيئة فهي بضد ذلك، ويكفي من مآثمها أنها وسيلة شيطانية لزرع العداوة والبغضاء والحقد بين المؤمنين، وتأمل معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾[١].

وقد حسّن القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية أن تكون أمرًا من الله تعالىٰ للمؤمنين فيما بينهم خاصة بحسن الأدب وإلانة القول، وخفض الجناح، وإطراح نزغات الشيطان[٢].

وإذا كان هذا أدب القرآن، والرسول ﷺ كان خلقه القرآن، فقد كانت سيرته عليه السلام ترجمانًا صادقًا لطيب الكلام مع أصحابه.

وكم هي عظيمة تلك الكلمة التي قالها ﷺ للزبير بن العوام رضي الله عنه: «**إن لكل نبي حواريًا وإن حواريّ الزبير بن العوام**»[٣].

---

(١) سورة الإسراء، آية: (٥٣).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٧٧).

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٤/ ٢١١).

وهل تراها من باب المصادفة أن يقول الرسول ﷺ لأبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ: «**لكل أمة أمين وإن أميننا أيتها الأمة أبوعبيدة بن الجراح**»[١].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ والأمين هو الثقة الرضي، وهذه الصفة وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره، لكن السياق يشعر بأن له مزيدًا في ذلك، لكن خص النبي ﷺ كل واحد من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدر زائد فيها علىٰ غيره[٢].

وليس يخفىٰ أنه ﷺ تكلم إلىٰ عدد غير قليل من الصحابة بكلمات طيبات، حق لهم أن يفخروا بها في حياتهم، وأن تحفظها لهم الأمة بعد مماتهم، ومنها علىٰ سبيل المثال لا الحصر:

قوله لأبي بكر رضي الله عنه: «**لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبابكر، ولكنْ أخي وصاحبي**»[٣].

وفي رواية: «**ولكن أخوة في الإسلام أفضل**»[٤].

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إيها يا ابن الخطاب،**

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢١٦).
(٢) «فتح الباري» (٧/ ٩٣).
(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٤/ ١٩١).
(٤) المصدر السابق (٤/ ١٩١).

والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط إلا سلك فجًّا غير فجك»[١].

وقال له: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر**»[٢].

وقال ﷺ في شأن عثمان رضي الله عنه: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»[٣].

وقال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي**»[٤].

كما قال في حق جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: «**أشبهت خَلْقي وخُلُقي**»[٥].

وقال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم أحد: «**إرم فداك أبي وأمي**»[٦].

وكان سعد يفتخر بهذه الكلمة ويقول: «جمع لي النبي ﷺ أبويه

---

(١) «صحيح البخاري» (٤/ ١٩١).
(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٠٠).
(٣) «صحيح مسلم» (٤/ ١٨٦٦).
(٤) «البخاري» (٤/ ٢٠٨)، «مسلم» (٤/ ١٨٧٠).
(٥) «صحيح البخاري» (٤/ ٢٠٩).
(٦) «صحيح مسلم» (٤/ ١٨٧٦).

يوم أُحُد»[١].

وقال علي رضي الله عنه: «ما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد، غير سعد بن مالك، فإنه جعل يقول له يوم أُحُد: **إرم فداك أبي وأمي**»[٢].

وشهد ﷺ لطلحة بن عبدالله ومعه غيره من الصحابة بالجنة حين تحرك بهم جبل حراء، فقال له النبي ﷺ: «**اسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد**»[٣].

وقال له يوم أُحُد: «**أوجب طلحة**»[٤] والمعنىٰ وجبت له الجنة.

وقال ﷺ للأنصار: «**اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ**، قالها ثلاث مرار»[٥].

ومثل هذه الكلمات منه ﷺ كثير، ولم تكن قصرًا علىٰ فئة دون أخرىٰ، بل كان يبذلها عليه الصلاة والسلام للموالي كما يبذلها لذوي النسب والجاه، وقد قال ﷺ لمولاه زيد بن حارثة رضي الله

---

(١) «صحيح البخاري» (٤/ ٢١٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ١٨٧٦). جاء في «صحيح مسلم» (٤/ ١٨٨٠): عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قوله: «أما والله لقد جمع لي رسول الله ﷺ يومئذ (يوم بني قريظة) أبويه فقال: فداك أبي وأمي».

(٣) «صحيح مسلم» (٤/ ١٨٨٠).

(٤) «مختصر الشمائل» وصحَّح الألباني سنده ص(٦٥).

(٥) رواه البخاري في «الصحيح» ح(٣٧٨٥)، وانظر: «الفتح» (٧/ ١١٣، ١١٤).

عنه: «**أنت أخونا ومولانا**»[١].

كما كان عليه الصلاة والسلام يتصدق بهؤلاء الكلمات الطيبات علىٰ الصغار، كما يتصدق بها على الكبار، وقد مسح رأس عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وقال له: «**إنك لغلام معلم**»، يقول عبدالله: فأخذت عنه سبعين سورة ما نازعنيها بشر[٢].

وضم عبدالله بن عباس رضي الله عنهما إلىٰ صدره وقال: «**اللهم علمه الحكمة**»، وفي رواية: «**اللهم علمه الكتاب**»[٣].

وفي صحيح مسلم: «**اللهم فقهه**»[٤].

قال أهل العلم: وهذه الدعوة مما تحقق إجابة النبي ﷺ فيها، لما علم من حال ابن عباس في معرفة التفسير والفقه في الدين رضي الله عنه[٥].

وتحمل كلمته ﷺ لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما ثناءً ودعوةً استجاب لها هذا الصحابي الفطن حين قال له عليه الصلاة والسلام: «**نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي بالليل**»، قال سالم

---

(١) «البخاري» (٤/ ٢١٣).
(٢) «السيرة النبوية» للذهبي ص(٢٤٩)، وإسناده حسن قوي كما قال الذهبي.
(٣) «صحيح البخاري» (٤/ ٢١٧).
(٤) «صحيح مسلم» (٤/ ١٩٢٧).
(٥) ابن حجر، «الفتح» (٢/ ١٧٠).

(مولاه) فكان عبدالله لا ينام من الليل إلا قليلاً[١].

وكيف لا تهدي أو تؤثر كلماته ﷺ وهي تخرج من مشكاة النبوة، وما لم ير أثره في حياته تتحقق فيه نبوته بعد مماته، كما ظهر ذلك جليًّا في كلماته للحسن بن علي رضي الله عنهما حين قال: «**ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**»[٢].

ولم تكن هؤلاء الكلمات الطيبات وتلك البشارات قصرًا علىٰ الرجال، بل شملت النساء، وقد قال لابنته فاطمة رضي الله عنها: «**فاطمة سيدة نساء أهل الجنة**»[٣].

وقال في شأن مريم، وآسية، وعائشة رضي الله عنهن: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[٤].

وقد قال ﷺ لأم هانئ ـ رضي الله عنها ـ قولاً كريما حين دخل عليها وسألها: «**أعندك شيء؟**» فقالت: لا، إلا خبزًا يابس وخلاً،

---

(١) «صحيح البخاري» (٤/ ٢١٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٤/ ٢١٦).
(٣) «صحيح البخاري» (٤/ ٢٠٩، ٢١٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٤/ ٢٢٠).

فقال: «**هاتي، ما أقفر بيت من أدم فيه خل**»[١].

وقال لأم سليم رضي الله عنها أجمل وأوفىٰ، وقد رأىٰ يتيمة عندها فقال: «**آنت هيه، لقد كبرت لا كبر سنك**» فرجعت اليتيمة إلىٰ أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لك يا بنية؟ قالت الجارية: دعا عليَّ النبي ﷺ أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدًا، أو قالت: قرني، فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها حتىٰ لقيت رسول الله ﷺ فقال لها: «**ما لك يا أم سليم**»؟ قالت: يا نبي الله أدعوت على يتيمتي؟ قال: «**وما ذاك يا أم سليم؟**» قالت: زعمت أنك دعوت أن لا يكبر سنها ولا يكبر قرنها. قال: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «**يا أم سليم، أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورًا وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة**»[٢].

وبالجملة فالأصل في كلماته عليه الصلاة والسلام الطهر والعفاف والبركة والدعوة وحُسن القول، وما خرج عن ذلك بحكم بشريته فقد اعتذر لأمته وسأل ربه أن يجعلها لهم مغنمًا

---

(١) «مختصر الشمائل المحمدية»، اختصار وتحقيق الألباني ص(٩٨) بسند حسن.
(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٠٩، ٢٠١٠).

وأجرًا، وفي هذا المعنىٰ تحدثنا أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وتقول: دخل علىٰ رسول الله ﷺ رجلان، فكلماه بشيء لا أدري ما هو، فأغضباه، فلعنهما وسبهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله، من أصاب من الخير شيئًا ما أصابه هذان؟ قال: «**وما ذاك؟**» قالت: قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: «**أوما علمت ما شارطت عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرًا**»(١).

ذلك ـ إخوة الإسلام ـ جزء من عظمة سيرة محمد ﷺ، وذلك ترجمان صادق لقوله عليه السلام: «**والكلمة الطيبة صدقة**»(٢).

وقد يقول قائل إننا لا نملك بشارات نحكم بها لأحد من خلق الله بالجنة، كتلك البشارات التي كان يملكها الرسول ﷺ، وليس لقولنا من المصداقية في الألقاب ما لقول الرسول ﷺ، وهو الذي يوحىٰ إليه من ربه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾(٣).

ومع التسليم بذلك فلا يشك أحد أن بإمكاننا أن ندعو بالكلمة الطيبة، وبمقدورنا أن نتعامل بالثناء الحسن، فمساحة الكلمة الطيبة والثناء الجميل من السعة والشمول بحيث لا تنحصر في

---

(١) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٠٧).

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم، انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (١/ ٤٢٤).

(٣) سورة النجم، الآيتان: (٣، ٤).

أمور لا يملكها إلا الأنبياء عليهم السلام؟ وهل الأنبياء إلا مكان للتأسي والقدوة، وهل يغيب عنا أنا شهود الله في أرضه؟

وهل يعجز أحدنا أن يقتدي بالحبيب المصطفى ﷺ ويتصدق كل يوم بلسانه إن لم يستطع ذلك بماله؟ وهل نشيع المحبة والأخوة بيننا عبر طيب كلام ألسنتنا؟ أم ترون البعض منا يستمرئ الجفاء والغلظة في القول بعيدًا عن هدي المصطفى ﷺ؟ ذلك ميدان يتنافس فيه المتنافسون ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

* * *

(١) سورة فصلت، آية: (٣٥).

النظـــرة الهادفـــة

وإذا كان هذا وقع الكلمة الطيبة فإن للنظرة الهادفة أثرها، وهي تسبق الكلمة، وتفتح آفاق النفس لها، ويستشعر دورها أصحاب النفوس المرهفة، وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه يحدثنا عن اهتمام الرسول ﷺ بهذا الجانب ويقول: «كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه علىٰ أشر القوم يتألفهم بذلك، فكان يقبل بوجهه وحديثه عليَّ حتىٰ ظننت أني خير القوم، فقلت يا رسول الله، أنا خير أو أبوبكر؟ قال: «**أبوبكر**»، فقلت: يا رسول الله، أنا خير أو عمر؟ فقال: «**عمر**»، فقلت يا رسول الله، أنا خير أو عثمان؟ قال: «**عثمان**»، فلما سألت رسول الله ﷺ فصدقني، فلوددت أني لم أكن سألته»[1].

فالتألف بالنظرة واضح من خلال النص، والتأثر بها أوضح حتىٰ خيل لعمرو مع دهائه أنه خير من أبي بكر أو عمر أو عثمان، ثم علم أخيرًا أن ذلك أسلوب في التربية وأدب يسلكه النبي ﷺ مع من يجلس إليه ليقربهم إليه ويدعوهم من خلاله، فأين ذلك ممن ينظرون إلىٰ الناس شزرًا، أو يضنون بنظراتهم فيشيحون بوجوههم

(١) «مختصر الشمائل» للترمذي، تحقيق الألباني، ص(١٨١)، وإسناده حسن.

عند مقابلة الناس لهم؟

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكتف بالنظرة الهادفة منه، بل كان يعالج نظرات أصحابه، ويتأثر لتغيير وجوههم لسبب أو لآخر، ويطيب خواطرهم، وهذا الصعب بن جثامة ـ رضي الله عنه ـ يحدثنا عن موقف حصل له مع النبي ﷺ يقول: أهديت رسول الله ﷺ حمارًا وحشيًّا، فرده عليّ، فلما رأىٰ ما في وجهي قال: إنا لم نرده عليك إلا لأنا حُرُم»[1].

* * *

(١) متفق عليه، انظر: «رياض الصالحين» ص(٢٦٣)، ط. المكتب الإسلامي.

الابتسامة اللطيفة

ومع النظرة الهادفة تكون الابتسامة اللطيفة التي تشيع الهدوء والحنان، وتذهب التعبيس وتقطيب الجبين، ولا تزيد فتذهب الحياء أو تقلل من القدر.

قال عبدالله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه: «ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ».

وفي رواية: «ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسمًا»[١].

وروي الإمام أحمد عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت: كان أبوالدرداء رضي الله عنه إذا حدث حديثًا تبسمَ، فقلت: لا يقول الناس إنك أحمق أي بسبب تبسمك في كلامك فقال أبوالدرداء: ما رأيت رسول الله ﷺ أو سمعته يحدث حديثًا إلا تبسم، فكان أبوالدرداء إذا حدث حديثًا تبسم (اتباعًا لرسول الله ﷺ)[٢].

ويقول جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك».

وفي رواية «إلا تبسم»[٣].

---

(١) رواه الترمذي في «الشمائل»، وصحّح إسناده الألباني في «المختصر» (١٢١).

(٢) انظر: عبدالله سراج الدين، «سيدنا محمد رسول الله» ص(١٥٣).

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي وابن ماجه، «مختصر الشمائل» (١٢٢).

كان هذا جزءًا من أدب تعامله عليه الصلاة والسلام وهو كما ترىٰ وسط بين الإفراط في الضحك المؤدي إلىٰ موت القلب، فكثرة الضحك تميت القلب، وبين ضيق النفس وعبوس الوجه المنفر للآخرين والموحش للأقربين فضلاً عن الأبعدين.

فهل نعي هذه الأخلاق الحميدة، وهل نتطبع بهذه الطباع الكريمة، وهل نستحضر الأجر والمثوبة ونحن نتأسىٰ بالرسول ﷺ ونتبع آثاره، ونستن بسنته؟ إن في ذلك الفلاح لنا، وللمجتمع ممن حولنا.

* * *

التوجيه الكريم والتلطف في القول وحسن التعليم

وهو من أقصر الطرق للبلاغ، ومن أنسب الوسائل للقبول، وأدعىٰ للمحبة وأقرب للاستجابة، فلا إثارة فيه ولا استفزاز، ولا مبرر معه للرفض والمعاندة، ولا مجال للاستعلاء والاستكبار عن قبول الحق، إذ النفوس فيها حظ من الجهل يسوِّغ لصاحبها بطر الحق وغمط الناس، وربما جعل صاحبها فتنة الناس كعذاب الله، وبعضها مصاب بداء الغرور والاستكبار مع معرفة الحق ولا تزيدها الشدة في القول إلا قسوة وتصلبًا ونفورًا واستكبارًا.

أما الرسول ﷺ فقد ملك قلوب العباد بتوجيهاته الكريمة وبتلطفه في البلاغ والدعوة، حتىٰ إن أشد الناس له عداوة ليعود بعد مقابلته وسماع موعظته من أحب الناس إليه، وهذا «عدي بن حاتم الطائي» رضي الله عنه يقول: لما بعث النبي ﷺ كرهته كراهية شديدة، فانطلقت حتىٰ كنت في أقصىٰ الأرض مما يلي الروم، فكرهت مكاني أشد مما كرهته، فقلت: لو أتيته فإن كان كاذبًا لم يخف عليَّ، وإن كان صادقًا اتبعته، وفي الرواية أن الرسول ﷺ قال له: أسلم تسلم، وحدثه عن ديانته النصرانية،

وعن مستقبل الإسلام، فأسلم وحسن إسلامه[١].

وجاء في قصة إسلام طلحة بن البراء بن عمير البلوي رضي الله عنه لما لقي النبي ﷺ جعل يدنو منه، ويلصق به، ويقبل قدميه ويقول: يا رسول الله، مرني بما أحببت، لا أعصي لك أمرا، فعجب النبي ﷺ لذلك وهو غلام، فقال: «**اذهب فاقتل أباك**»، فذهب ليفعل، فدعاه، فقال: أقبل فإني لم أبعث بقطيعة رحم. . . » الحديث[٢].

ويبدو أثر التوجيه الكريم والتلطف في القول جليًّا واضحًا في قصة معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه حين شمّت رجلاً من المسلمين عطس وهو يصلي فرماه الصحابة بأبصارهم مستنكرين عليه، فقال ـ وهو في الصلاة ـ واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إليَّ. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. . . وفي نهاية القصة قال معاوية: فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت مُعلمًا مثله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**. . . » الحديث[٣].

---

(١) انظر: «الإصابة» (٦/ ٤٠١، ٤٠٢)، وانظر طرفاً من خبره في «صحيح البخاري مع الفتح» (٦/ ٦١٠).

(٢) انظر: «الإصابة» (٥/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) الحديث رواه مسلم بأكثر من رواية (١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

وفي قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، فصاح الناس به مستنكرين، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه ولا تزرموه**» (أي لا تقطعوا بوله) فتركوه حتىٰ بال. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن..**»[(١)].

وفي رواية البخاري قال ﷺ: «**دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»[(٢)].

وعلَّق الحافظ ابن حجر على الحديث بقوله: وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف، إذا لم يكن ذلك منه عناد...، وفيه رأفة النبي ﷺ وحسن خلقه[(٣)].

ويظهر أثر معاملة النبي ﷺ للأعرابي في رواية الإمام أحمد وغيره وحيث جاء فيها: أن الأعرابي قال بعد أن فقه في الإسلام: فقام النبي ﷺ إليَّ بأبي وأمي فلم يسب ولم يؤنب ولم يضرب[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٦١).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (١/ ٣٨١) ح(٥٣٧).

(٣) «الفتح» (١/ ٣٢٥).

(٤) انظر: «المسند» (٢٠/ ١٣٤، ١٣٥)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر. وانظر: الرواية كذلك عند ابن ماجه في «الطهارة» (١/ ١٧٦)، وأبوداود في «الطهارة» (١/ ١٠٣)، والترمذي (١/ ٩٩)، وانظر: «الفتح» (١/ ٣٢٥).

وجاء في أول الرواية أن الأعرابي، قال: «اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد معنا، فضحك النبي ﷺ وقال: لقد احتظرت واسعًا[١].

لكن الذي يظهر من الرواية أنه قال ذلك قبل بوله في المسجد.

ويبلغ أدبه ﷺ في التلطف في القول أن يستأذن الأطفال في سقيا الأشياخ قبلهم، ويحتفظ لهم بحقهم حين لا يأذنون.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام. وفي رواية: أصغر القوم، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحدًا. فتله رسول الله ﷺ في يده (أي ألقاه في يده). زاد رزين: والغلام الفضل بن العباس[٢].

وفي قصة إسلام أبي محذورة رضي الله عنه دروس عظيمة في التربية، وتلطف جميل في القول، وبراعة في التعليم والتأديب، لم يتمالك أبومحذورة نفسه من الاستسلام ثم الإسلام، وعاد بعد

---

(١) «المسند» (٢٠/ ١٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٦/ ٢٤٩)، «صحيح مسلم» (٣/ ١٦٠٤)، «جامع الأصول» (٥/ ٨٤).

السخرية بالمسلمين وبالأذان إلى مسلم يحب الرسول ﷺ والأذان، حتى بقي فيه وفي عقبه قرابة قرنين من الزمان وهم يؤذنون في المسجد الحرام[١].

(١) «جمهرة أنساب العرب» (١٦٣)، وانظر قصة أبي محذورة بتمامها في «الاستيعاب» لابن عبدالبر، بهامش «الإصابة» (١٢/ ١٣٦ ـ ١٣٨)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١١٨/٣).

إكرام كرام القوم

إكرام كرام القوم، وإنزال الناس منازلهم، وتقدير جاههم، والإحساس بمشاعرهم، أسلوب تربوي اقتفاه النبي ﷺ في معاملة الناس، ففي الناس سيد يطمع أن تقدر له سيادته، وفيهم الشريف الذي يأنف إذا حط من قيمته.

وتقدير المشاعر البشرية أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله، وهو بذلك مطلب شرعي، ومنهج إسلامي، ثبَّت أركانه ورسم حدوده المصطفى ﷺ وهو يقابل الوفود ويتعامل مع كلٍّ بما يناسبه.

فهذا جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه يفد إلى النبي ﷺ في بيته، وعنده جمع من الصحابة، فلم يجد جرير مكانًا، فقعد علىٰ الباب فنزع رسول الله ﷺ رداءه وألقاه إليه، فأخذه جرير فألقاه علىٰ وجهه وجعل يقبله ويبكي، ورمىٰ به إلىٰ النبي ﷺ وقال: ما كنت لأجلس علىٰ ثوبك، أكرمك الله كما أكرمتني، فنظر النبي ﷺ يمينًا وشمالاً وقال: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[1].

---

(١) الحديث رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» وفيه ضعف. «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥)، كما رواه ابن ماجه والبغوي، وأحد رواته ضعيف. «شرح السنة» للبغوي (١٣/ ١٢٨). ولكن الحديث له طرق أخرىٰ تتبعها «السخاوي» في «مقاصده» وقوىٰ =

ولعل مما يعضد قصة جرير وإكرام الرسول ﷺ الحديث السابق حيث قال جرير: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك أو ابتسم، متفق عليه.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قدّم جريرًا في حروب العراق علىٰ جميع بجيلة[١].

وأرسله علي رسولاً إلىٰ معاوية[٢].

قال الإمام البغوي رحمه الله: وإكرام كريم القوم وإنزال الناس منازلهم من السنة، ثم ساق الحديث السابق، وأورد بعده الأثر عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت في سفر فوضع طعامها، فجاء سائل، فقالت: ناولوه قرصًا، ثم مر رجل علىٰ دابة فقالت: ادعوه إلىٰ الطعام، فقيل لها فيه، فقالت: إن الله سبحانه وتعالىٰ أنزل الناس منازلهم، لابد لنا أن ننزلهم تلك المنازل، هذا المسكين يرضىٰ بقرص، وقبيحٌ بنا أن نعطي الغني ذا الهيئة قرصًا[٣].

وحين قدم علىٰ النبي ﷺ وفد عبد القيس حياهم وأكرمهم

= بها الحديث، انظر: «المقاصد الحسنة» ص(٣٣، ٣٤).

(١) «الإصابة» (٢/ ٧٧).

(٢) السابق (٢/ ٧٧).

(٣) «شرح السنة» (١٣/ ١٢٨)، وأثر عائشة ذكره مسلم في «مقدمة صحيحه» بلا إسناد تعليقاً ووصله أبوداود، وأبونعيم في «المستخرج» وابن خزيمة والبزار وأبويعلىٰ وغيرهم، وقال السخاوي: تعقب بالانقطاع والاختلاف في رفعه ووقفه. «حاشية شرح السنة» (١٣/ ١٢٨).

وقال: مرحبًا بالقوم غير خزايا ولا ندامىٰ، وأثنىٰ خيرًا علىٰ أشجهم، وقال: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[١].

بل بلغ اهتمام الرسول ﷺ بهم أن تشاغل بهم حتىٰ شغلوه عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فكان يقضيهما بعد العصر[٢].

وكان لإكرامه ﷺ لثمامة بن أثال سيد بني حنيفة وعفوه عنه مع قدرته علىٰ قتله أعظم الأثر، إذ كان سببًا في دخوله الإسلام طائعًا مختارًا، ومحبته للرسول ﷺ ولدينه وبلده، بل ووقوفه بعد ذلك في وجوه الكفار المعاندين.

وقصته كما رواها البخاري في صحيحه[٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاء برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟»**» فقال: عندي خير. يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم علىٰ شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فتركه حتىٰ كان الغد، ثم قال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: ما قلت لك: إن تُنعم تُنعم علىٰ شاكر. فتركه حتىٰ كان بعد الغد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي ما قلت لك.

---

(١) «البخاري مع الفتح» (٨/ ٨٥).

(٢) «الفتح» (٦/ ٨٦).

(٣) انظر: «صحيح البخاري مع الفتح» (٨/ ٨٧).

فقال: «**أطلقوا ثمامة**»، فانطلق إلىٰ نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. يا محمد، والله ما كان علىٰ الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ. والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبَّ البلاد إليَّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترىٰ؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوتَ؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتىٰ يأذن فيها النبي ﷺ».

قال الحافظ ابن حجر معلقًا علىٰ القصة: وفيها من الفوائد: تعظيم أمر العفو عن المسيء.. وفيه الملاطفة بمن يرجىٰ إسلامه من الأسارىٰ إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام[١].

وهكذا تظهر حكمة التشريع، وهدف الإكرام فليس القصد التفريق بين الناس إذْ هم عند الله سواسية لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢].

---

(١) «الفتح» (٨/ ٨٨).

(٢) سورة الحجرات، آية: (١٣).

وليس ذلك من باب موالاة أعداء الله ورغبة في موادتهم، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ. . .﴾[1].

ويقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[2].

أو من باب تسويد المنافقين وإعلاء شأنهم والرسول ﷺ يقول: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيدًا فقد أسخطتم ربكم عز وجل**»[3].

لكنه الإكرام لهدف نبيل، والتقدير لمصلحة ظاهرة ترتجىٰ للإسلام والمسلمين، وهي من باب «المداراة» وليست من باب «المداهنة» والفرق بينهما ظاهر لمن تأمل، ويقع الخلل ويحدث الخلط في أسلوب التعامل حين يغيب الفرق بين الأمرين.

وللحاجة لمعرفة الفرق بين «المداراة» و«المداهنة» ولأهمية الأمر وحساسيته أبسط الأمر في الأسلوبين، وأنقل كلام أهل العلم في ضوابطهما والفرق بينهما.

* * *

---

(١) سورة الممتحنة، آية: (١).

(٢) سورة المائدة، آية: (٥١).

(٣) حديث صحيح رواه أبوداود في «سننه»، انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٤٠)، «جامع الأصول» (١١/ ٧٣١).

بين المداراة والمداهنة

هذه مزلة يقع فيها كثير من الناس ممن لا علم عندهم، أما العالمون بسيرة النبي ﷺ وهديه في التعامل فقد عرفوها وضبطوها.

فهذا الإمام البخاري رحمه الله يبوب في كتابه الصحيح، وضمن كتاب الأدب «باب المداراة مع الناس» ثم يسوق الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن علىٰ النبي ﷺ رجل فقال: «**ائذنوا له، فبئس ابن العشيرة**» ـ أو «**بئس أخو العشيرة**» ـ فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت ثم ألنت له في القول. (وكأن عائشة استغربت هذا الفرق في أسلوب التعامل بين القول والفعل). فقال: «**أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تَرَكَه أو وَدَعه الناس اتقاء فحشه**»[(١)].

وساق الحديث الإمام مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب «باب مداراة من يتقىٰ فحشه»[(٢)].

كما نقل البخاري في الباب نفسه الأثر عن أبي الدرداء رضي الله

---

(١) «صحيح البخاري» (٧/ ١٠٢).
(٢) «صحيح مسلم» (٣/ ٢٠٠٢).

عنه: «**إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم**»[١].

والتكشير أو الكشر كما في النهاية: ظهور الأسنان للضحك، وكاشره إذا ضحك في وجهه وباسطه[٢].

وساق البخاري الحديث مرة أخرىٰ في كتاب الأدب، في باب: «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفاحشًا» بلفظ يختلف يسيرًا عن الرواية السابقة، وفيه زيادة ألفاظ يحسن الإحاطة بها ومنها «فلما جلس تطلّق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، «في حين تكتفي الرواية السابقة بأن الرسول ﷺ ألان له الكلام».

كما جاء في نهاية الرواية أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها حين استغربت موقفه: «يا عائشة، متى عهدتني فاحشًا؟ إن شر الناس منزلة. .»[٣].

أما الرواية قبلها فاكتفت ببقية الرواية «**إن شر الناس منزلة. . .**».

ولا شك أن هذه الزيادات تضيف جديدًا في أدب التعامل، وتكشف عن أسلوب مداراته ﷺ مع الوافدين إليه.

هذه الأحاديث والآثار نص في المداراة وشرعيتها. كما قال ابن

---

(١) «الصحيح مع الفتح» (١٠/٥٢٨).
(٢) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٤/١٧٦).
(٣) «صحيح البخاري» (١٠/٤٥٢).

حجر: هذا الحديث أصل في المداراة[١].

قال الإمام النووي رحمه الله: «وإنما ألان له في القول تألفًا له ولأمثاله علىٰ الإسلام، وفي هذا الحديث مداراة من يتقىٰ فحشه..»[٢].

وقال ابن بطال رحمه الله: «المداراة من أخلاق المؤمنين»[٣].

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: «في الحديث جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم والدعاء إلى البدعة، مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم، ما لم يؤد ذلك إلىٰ المداهنة في دين الله تعالىٰ»[٤].

ويؤكد الخطابي رحمه الله علىٰ الاقتداء بالرسول ﷺ في أدب المداراة ويقول: «... ولكن لما جبل عليه ﷺ من الكرم وأعطيه من حسن الخلق أظهر له البشاشة، ولم يجبه بالمكروه لتقتدي به أمته في اتقاء شر من هذا سبيله، وفي مداراته ليسلموا من شره وغائلته»[٥].

أما معنى المداراة والفرق بينها وبين المداهنة، فقد قال ابن

---

(١) «الفتح» (١٠/ ٤٥٤).
(٢) «شرح مسلم» (١٦/ ١٤٤).
(٣) «الفتح» (١٠/ ٥٢٨).
(٤) «الفتح» (١٠/ ٤٥٤).
(٥) «الفتح» (١٠/ ٤٥٤).

بطال: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق بينهما أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يُظهر عالي الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولاسيما إذا احتيج إلىٰ تألفه ونحو ذلك[1].

وهو كلام نفيس كما ترىٰ، وفيه توضيح للصورة ودفع للإشكال والإيهام.

وثمة توضيح آخر للفرق بين الأمرين، فقد قال القرطبي تبعًا لعياض ـ رحمهما الله ـ: والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معًا، وهي مباحة، وربما استحبت.

والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل من دنياه حسن عشرته، والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه

(١) «الفتح» (١٠/٥٢٨، ٥٢٩).

بقول، فلم يناقض قَولُه فعلَه، فإن قولَه فيه قولٌ حقٌّ، وفعلَه معه حسن عشرة، فيزول مع هذا التقرير الإشكالُ بحمد الله تعالىٰ[١].

وخلاصة القول أن المداراة تلطف في القول وحسن في المعاشرة وبذل للدنيا، مع الاحتفاظ بواجبات الدين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنها تلمس الحكمة وعدم تنفير الناس وكسب قلوبهم، أما المداهنة فهي ضعف في السلوك وخور في القلب يدفع بصاحبه إلىٰ مصاحبة الفساق ومؤآنستهم، وربما وصل الأمر إلىٰ موادة الكفار والتلطف معهم والانبساط إليهم دون قدرة علىٰ الإنكار عليهم بأي أسلوب، وهي بذل للدين والتماس لمصالح الدنيا.

وإذا كان صاحب المداراة يقصد من إرضائه للخلق والتودد إليهم إرضاء الخالق والدعوة إلى الله، وتعميم الخير ونشره دون التنازل عن شيء من شرع الله.

فإن صاحب المداهنة غايته إرضاء الخلق دون تفكير في سخط الخالق أو رضاه، وهو لا يتورع عن اقتراف محرم، ولا يتمعر وجهه للمنكر، ولا يجد دافعًا لبيان المعروف والدعوة إليه، وبيان المنكر والنهي عنه، وإذا كان الفرق بين الأمرين عظيمًا فإن الفرق بين الرجلين أعظم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) «الفتح» (١٠/ ٤٥٤).

وهذا التفريق في المعاملة والتوضيح للصور يجعل المسلم وسطًا بين طرفين: طرف يكثر مخالطة الناس فيما حل أو حرم، وطرف ينزوي عن المخالطة، ولا يرىٰ الانبساط من الناس حتىٰ ولو كان في أمر مباح، أو كان مَدخلاً للدعوة إلىٰ الله وتأليفًا للقلوب.. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

والسنة دائمًا وسط بين الغالي والجافي، والأئمة الأعلام أدركوا هذا جيدًا، فالبخاري يبوب في كتاب الأدب «باب الانبساط إلىٰ الناس» وابن مسعود رضي الله عنه يشير إلىٰ حدود الانبساط وضوابطه فيقول: «خالط الناس ودينك لا تَكْلِمنه»[١].

وقبله قال الرسول ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[٢].

* * *

(١) «صحيح البخاري» (٧/ ١٠٢)، وأشار ابن حجر إلىٰ أن الأثر لابن مسعود، وصله الطبراني في «الكبير»، وأخرجه ابن المبارك بألفاظ مقاربة. «الفتح» (١٠/ ٥٢٦).

(٢) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما، انظر: «صحيح الجامع الصغير» للألباني (٦/ ٥).

عدم المواجهة في العتاب والغضب والشدة في أمر الله

ومع أن من خلق النبي ﷺ عدم مواجهة الناس في العتاب وعدم تعيين المخطئ حال النصيحة، والحرص علىٰ التعميم والاكتفاء بالقول «ما بال أقوام يقولون كذا أو يفعلون كذا». كما روىٰ البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئًا فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله، ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية[١].

وكان ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأىٰ شيئًا يكرهه عرف ذلك أصحابه في وجهه[٢].

وكان ﷺ لا يكاد يواجه أحدًا بشيء يكرهه، كما روى ذلك أبوداود، وأحمد وإن كان في سنده مقال[٣].

مع ذلك كله فقد كان عليه الصلاة والسلام قويًّا في ذات الله وأمره شديدًا إذا انتهكت محارمه، وقد جاء إليه رجل فقال: إني

---

(١) «صحيح البخاري» (٧/ ٩٦).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٩٦).

(٣) انظر: «مختصر الشمائل» للترمذي ص(١٨٢)، وقد ضعف المحقق الألباني إسناده فانظره.

لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، قال ابن مسعود رضي الله عنه (راوي الحديث) فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضبًا في موعظة منه يومئذٍ، قال: فقال: «**أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم صلى بالناس فليتجوز فإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة**»[١].

ودخل يومًا على عائشة رضي الله عنها وفي البيت قرام فيه صور، فتلون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه، وقال: «**من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور**»[٢].

فهو عليه الصلاة والسلام لا يحابي أحدًا في دين الله، مع حرصه الشديد علىٰ عدم مواجهة أحد بما يكره، وبهذا وذاك يكتمل الخلق ويتم الإيمان.

* * *

(١) رواه البخاري (٧/ ٩٨).
(٢) رواه البخاري (٧/ ٩٨).

الحلم مع الجهلة وتقديم ذوي السن والمكانة في المخاطبة وغيرها

وليست شدته ﷺ وغضبه بالتي تحركها الأهواء أو تستثيرها تصرفات الجهلة وذوي الأهواء فمن كريم خلقه عليه الصلاة والسلام، ومن لطف معاملته أن شدة الجهل عليه لا تزيده إلا حلمًا وعفوًا، وفي قصة إسلام الحبر اليهودي زَيْد بن سَعْنَة رضي الله عنه ما يؤكد ذلك، وقد قال: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه، إلا خصلتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فذكر قصة مبايعته التمر إلىٰ أجل ومقاضاته إياه عند استحقاقه، وأنه التقىٰ به يومًا وأخذ بمجامع قميصه وردائه ونظر إليه بوجه غليظ، وقال: يا محمد، ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتكم يا بني عبدالمطلب لمطل، يقول: فنظر إليَّ عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم قال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرىٰ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلىٰ عمر رضي الله عنه في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: «**أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة،**

اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعًا من تمر».

ولما استيقن «زيد» من هاتين الخصلتين في الرسول ﷺ أعلن إسلامه وشهد الشهادتين، وأخبر النبي ﷺ بخبره[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلىٰ صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء[(٢)].

فهل فوق هذا الخلق من مزيد؟ إلا أنها أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

وإذا كانت هذه نماذج لحلمه وصفحه مع شدة الآخرين وجهلهم عليه، فليست مودته عليه الصلاة والسلام وحسن تعامله علىٰ حساب المروءة وكريم الخصال، فإكرام الكبير وبدء الأكبر أدب وجه إليه النبي ﷺ حين استعجل الصغار، وبوب البخاري

---

(١) روى القصة الطبراني وابن حبان، والحاكم وأبوالشيخ في كتاب «أخلاق النبي ﷺ»، وغيرهم. بإسناد قال عنه ابن حجر: رجاله موثقون، وللقصة شاهد عند ابن سعد [«الإصابة» (٤/ ٥٤، ٥٥)]، كما صحح إسنادها الحاكم في «مستدركه» وقال: وهو من غرر الحديث، ووافقه الذهبي (٣/ ٦٠٤، ٦٠٥)، كما روىٰ القصة بطولها البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٨)، وابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ١٦٦، ١٦٧)، وابن كثير في «السيرة» (١/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٩٤).

رحمه الله في صحيحه في كتاب الأدب: «باب إكرام الكبير ويبدأ الأكبر بالكلام والسؤال» ثم ساق قصة مجيء عبدالله بن سهل، فجاء عبدالرحمن بن سهل، وحويصة ومحيصة ابنا مسعود إلىٰ النبي ﷺ فتكلموا في أمر صاحبهم، فبدأ عبدالرحمن وكان أصغر القوم فقال النبي ﷺ: «**كَبِّرِ الكُبْرَ**»، قال يحيىٰ: لِيَلِيَ الكلام الأكبرُ، فتكلموا في أمر صاحبهم. . . الحديث[١].

وليس ذلك قصرًا علىٰ الكلام، فمن كريم خلقه ولطف معاملته أنه حين يستشعر حقًّا للصغير ويرغب في تقدير الكبير، يستأذن الصغير في الإيثار بحقه فإن أذن وإلا يكون بذلك قد طيب خاطر الكبير وأشعر بمكانته، ويروي لنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنموذجًا لذلك ويقول: دخلت مع رسول الله ﷺ أنا وخالد بن الوليد علىٰ ميمونة، فجاءتنا بإناء من لبن، فشرب رسول الله ﷺ وأنا علىٰ يمينه، وخالد علىٰ شماله، فقال لي: الشربة لك، فإن شئت آثرت بها خالدًا، فقلت: ما كنت لأوثر علىٰ سؤرك أحدًا. . . الحديث[٢].

* * *

(١) «صحيح البخاري» (٧/ ١٠٦).

(٢) رواه الترمذي في «الشمائل» ص(١١٢، ١١٣)، وفي «السنن» برقم (٣٤٥١) وحسن إسناده، وكذلك حسَّنه الألباني في «المختصر».

بسط النفس ومداعبة الأطفال

ومع كبير قدره عليه الصلاة والسلام، وأهمية وقته فما تذمر أو تكبر أو اعتذر عن قضاء حاجة لأحد من أمته مع قدرته عليه.

ويحدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه وهو خادمه فيقول: كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[١].

وجاء في صحيح مسلم وغيره «أن امرأة كان في عقلها شيء، جاءت إلىٰ النبي ﷺ فقالت له: إن لي إليك حاجة، فقال: «**يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتىٰ أقضي لك حاجتك**»، فخلا معها في بعض الطرق، حتىٰ فرغت من حاجتها[٢].

وكان ﷺ إذا صلىٰ الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتىٰ بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاءوا في الغداة الباردة فيغمس يده فيها[٣].

إذا كانت تلك معاملته مع الإماء وضعاف الناس، فلا تسأل عن

---

(١) البخاري (٧/ ٩٠) تعليقاً.

(٢) انظر: الرواية في صحيح مسلم (٤/ ١٨١٣)، و«مختصر الشمائل» للترمذي ص(١٧٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٤/ ١٨١٢).

مداعبته للأطفال وملاطفتهم وإدخال السرور علىٰ نفوسهم وهو الذي يخالطهم ويكنيهم وهم صغار، ويقول لأحدهم: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير**»[١].

وأبوعمير هذا أخ صغير لأنس بن مالك رضي الله عنه، قال أنس: أحسبه فطيمًا، والنغر (طائر صغير) يلعب به[٢].

وهذا الحديث لأهميته ودلالاته اعتنىٰ به العلماء، ونبه أبوحاتم الرازي علىٰ فوائد قصة أبي عمير بخصوصها، وتلاه الترمذي في الشمائل، ثم الخطابي[٣].

وقال ابن حجر: وفي هذا الحديث عدة فوائد جمعها أبوالعباس أحمد بن أحمد الطبري المعروف بابن القاص، وخصّه بجزء مفرد من تصانيفه، وقال في أول كتابه: إن بعض الناس عاب علىٰ أهل الحديث أنهم يروون أشياء لا فائدة فيها، ومثّل ذلك بحديث أبي عمير هذا، ثم قال: وما درىٰ أن في هذا الحديث من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستين وجهًا، ثم ساقها مبسوطة، فلخصتها مستوفيًا مقاصده، ثم اتبعته بما تيسر من الزوائد عليه[٤].

وحين اطمأن الأطفال إلىٰ حسن معشره، وأمنوا تأنيبه فضلاً عن

---

(١) «صحيح البخاري مع الفتح» (٧/ ١٠٢).
(٢) «صحيح البخاري مع الفتح» (٧/ ١١٩)، «الفتح» (١٠/ ٥٨٣).
(٣) «الفتح» (١٠/ ٥٨٥).
(٤) «الفتح» (١٠/ ٥٨٤).

عقوبته اتخذوا من ظهره الكريم راحلة يمتطونها علىٰ عادة الأطفال في اللعب والمرح، وربما كان ذلك في الصلاة والمسلمون خلفه.

وتأمل في الحادثة التي سأسوق لك وما فيها من سماحة الخلق، وسعة الصدر والتحمل دون ضجر.

فقد أخرج النسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي حديث خروج النبي ﷺ علىٰ الصحابة في إحدىٰ صلاتي العشي (الظهر أو العصر) وهو حامل حسنًا أو حسينًا رضي الله عنهما، فتقدم النبي ﷺ فوضعه عند قدمه اليمنى ثم كبر للصلاة فصلىٰ، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها.

فرفعت رأسي من بين الناس فإذا الصبي علىٰ ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت إلىٰ سجودي، فلما قضىٰ رسول الله ﷺ قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك هذه سجدة أطلتها، حتىٰ ظننا أنه قد حدث أمرٌ أو أنه يوحىٰ إليك؟ قال: «**كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتىٰ يقضي حاجته**»[1].

* * *

(١) انظر: «صفة صلاة النبي ﷺ» محمد ناصر الدين الألباني ص(١٠٨).

تشجيع ذوي المواهب

وكان لذوي المواهب نصيب من خلقه عليه الصلاة والسلام، يشجعهم ويحضهم ويدعو لهم، كيف لا وهم سهام من سهام الدعوة، أفلح المصطفىٰ ﷺ في الرمي بها والاستفادة من أصحابها أيًّا كانت مواهبهم، وفي أي مجال كان إسهامهم.

ففي ميدان الكلمة الصادقة المؤثرة كان ﷺ يضع لحسان بن ثابت رضي الله عنه منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح عنه، ويقول: «**إن الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله ﷺ**»(١).

وحين دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، وابن رواحة يمشي بين يديه، وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

قال له عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال ﷺ: «**خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من**

---

(١) حديث حسن، أخرجه الترمذي في «الشمائل»: «المختصر» ص(١٣٣)، وابوداود في «سننه»: «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٤٦).

نضح النبل»[١].

وفي ميدان الجهاد والفداء كان ﷺ يشيد ببطولات المسلمين ويثني علىٰ أصحاب البأس من شجعان المسلمين، فكان يناول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه السهام، وهو يقاتل بين يديه قتال الأبطال، ويقول له: «**إرم فداك أبي وأمي**»[٢].

ولما في هذه الكلمات من معاني التشجيع فقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يذكرها لسعد رضي الله عنه ويقول: ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك، فإني سمعته يقول يوم أحد: «**يا سعد، إرم فداك أبي وأمي**»[٣].

وإذا كانت غزوة أحد من المعارك الشديدة في تاريخ المسلمين، فقد أبلىٰ ثلة من المسلمين فيها بلاءً حسنًا كانت محل عناية النبي ﷺ وتشجيعه وممن أبلىٰ في هذه المعركة أبوطلحة الأنصاري رضي الله عنه، وقد عبر الرسول ﷺ عن إعجابه لقتاله

---

(١) رواه الترمذي في «الشمائل»، وصحَّح إسناده الألباني كما في «المختصر» ص(١٣١، ١٣٢). والطبراني، وحسن إسناده ابن حجر كما في «الإصابة» (٦/ ٨٠).

(٢) «صحيح البخاري مع الفتح» (٧/ ٣٥٨)، و«مسلم» (٤/ ١٨٧٦).

(٣) «صحيح البخاري مع الفتح» (٧/ ٣٥٨)، و«صحيح مسلم» (٤/ ١٨٧٦).

فقال: «**لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة**»[١].

وما بال رسول الله ﷺ لا يشيد بأبي طلحة، وقد كان ممن ثبت معه يوم أحد حين انهزم الناس، وكان بين يديه مجوّب عليه بجعبة له، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول له الرسول ﷺ: انثرها لأبي طلحة، وكان أبوطلحة رجلاً راميًا شديد النزع، كسر يوم أحد قوسين أو ثلاثة.. كما ورد ذلك كله في صحيح البخاري[٢].

كما أبان الرسول ﷺ عن ثلة من أصحابه، كان لهم في القرآن الكريم فضل سبق علىٰ من سواهم، ولذلك استحقوا منه الإشادة والتشجيع والثناء فقال: «**خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب**»[٣].

وفي رواية: «**استقرئوا القرآن من أربعة...**» وذكرهم[٤].

* * *

(١) رواه أحمد كما في «الفتح الرباني» (٢٢/٥٨٩)، وقال د. أكرم العمري: إسناد رجاله ثقات: «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم العمري (٢/٣٨٧).

(٢) انظر: «الصحيح مع الفتح» (٧/ ٣٦١).

(٣) «صحيح البخاري مع الفتح» (٧/ ١٢٦).

(٤) المصدر السابق (٧/ ١٢٥).

البـــر والوفـــاء

قال المرزُباني: أصدق بيت قالته العرب هذا البيت:

فما حملت من ناقةٍ فوق رحلِها أبرَّ وأوفى ذمةً من محمد[١]

فالبر والوفاء خلق لازم النبي ﷺ في كل أحواله، في حالة الرضا والغضب، وفي حال الهزيمة أو النصر، والضعف والمسكنة أو القوة والغلبة.

ويكفي أن نتذكر في هذا الجانب موقفه العظيم يوم فتح مكة، واقتداره علىٰ المشركين الذي آذوه وأصحابه، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير ذنب عملوه ولا جريمة اقترفوها سوىٰ أنهم قالوا ربنا الله، ورفضوا العبودية لغير الله، وترفعوا عن العوائد الجاهلية، وأنكروا ممارساتها، ورفضوا طقوسها، ولا يزال التاريخ يحفظ تلك الكلمات التي أطلّ بها رسول الله ﷺ علىٰ الملأ حين فتح مكة واستقر له الأمر من قريش، وهو يقول: «**ما ترون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال:

---

(١) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/٩٧) علىٰ اختلاف في قائل البيت هل هو سارية بن زنيم، أو أنس بن زنيم، أو أسيد بن أبي إياس علىٰ ما نقله ابن حجر، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/٤٦) وقد نسب البيت لأنس ابن زنيم الديلي.

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»[١].

أما وفاؤه مع سدنة الكعبة من بني شيبة فهو عظيمٌ جدُّ عظيم، ولعله لم يخطر ببال أحد منهم أن يبقي لهم سدانة البيت أو يسلمهم مفاتيحها، قال ابن إسحاق فيما حدث به عن بعض أهل العلم: إن عليًّا رضي الله عنه قام إلىٰ النبي ﷺ ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلىٰ الله عليك،

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/٤٦) [تعليق محمد محي الدين عبدالحميد) وقد حكم همام، وأبوصعيليك علىٰ الحديث بالضعف في تحقيقهما لسيرة ابن هشام (٤/٧٨)، وعزاه العمري إلىٰ أبي عبيد في كتابه «الأموال» وقال: إسناده حسن لكنه مرسل، وأشار إلىٰ جهالة سند ابن إسحاق السابق، انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» (٢/٤٨١)، كما وردت الرواية بلفظ آخر عند أحمد، قال النبي ﷺ: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» ونزلت الآية الكريمة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦] فاختار الرسول ﷺ أن يعفو عنهم ويصبر علىٰ ما كان منهم ويدع عقوبتهم ويقول: «نصبر ولا نعاقب» [«المسند» (٥/١٣٥)]، وعند الترمذي: أن رجلاً قال: لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «كفوا عن القوم إلا أربعة» [«سنن الترمذي» (٤/٣٦٢)]، وحسن إسناده الألباني فقال: حسن صحيح الإسناد. «صحيح سنن الترمذي» (٣/٦٧). ونقل الرواية نفسها الحاكم في «مستدركه» وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي «المستدرك» (٢/٣٥٩)، وممن صحَّح الرواية أيضاً: د. مهدي رزق الله في كتابه: «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» ص(٥٦٩)، بدون «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فهذه إشارة إلى جهالة إسناد ابن إسحاق.

فقال رسول الله ﷺ: «**أين عثمان بن طلحة؟**» فقال له: «**هذا مفتاحك يا عثمان، اليوم يومُ برٍّ ووفاء**»(١).

حتىٰ في هذه اللحظة الفاصلة لحظة الانتصار الكاسح لم يتخل محمد ﷺ عن طبيعته الأخلاقية: العفو عن العتاة المذنبين، والوفاء لأصحاب الحقوق، والوقوف مع أصحابه المنتصرين الموقف الصارم العادل، وهذا يدلل علىٰ قدرته علىٰ التزام الموقف الأخلاقي المناسب مهما تكن اللحظةُ التاريخيةُ حرجةً وحاسمة، إنه نبي يشرع بسلوكه، وينطلق من منهج واضح، وليس

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٣٢) بنفس السند السابق، ولذا حكم عليه المحققان: همام وأبوصعيليك بالضعف، كذلك: «السيرة النبوية» (بتحقيقهما) (٤/ ٧٨)، وخالفهما الدكتور العمري، فقال: وردت في ذلك عدة أحاديث مرسلة ومنقطعة تقوىٰ بمجموعها «السيرة النبوية الصحيحة» (٢/ ٤٨٣)، وانظر: ابن حجر في «الفتح» (٨/ ١٨، ١٩)، وقد ساق عدداً من الروايات في بني شيبة ومفتاح الكعبة وحسّن رواية عند ابن إسحاق، وإن كانت لم تذكر العبارة نفسها، والمصنف لعبدالرزاق (٤/ ٨٣، ٨٤، ٨٥)، ومنها أن الرسول ﷺ طلب منهم أن يغيبوا المفتاح، كما مال إلىٰ تقوية الروايات الضعيفة الواردة في هذا الصدد. مهدي رزق الله في كتابه: «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» ص(٥٧١).
أما الهيثمي فقد ساق رواية مفصلة للحدث تكشف عن تخوف بني شيبة من تسلم مفاتيح الكعبة، وتشير إلىٰ أسباب عدوله ﷺ عن تسليمها لبني هاشم، وعزاه إلىٰ عبدالرزاق ثم قال: رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح. «مجموع الزوائد» (٦/ ١٧٧).

من رد فعل تمليه أو تفرضه أية ضغوط أو ظروف[١].

وهو بذلك يرشد أمته إلىٰ سلوك البر والوفاء، وإذا كانت تلك معاملته مع ذوي السابقة والأعداء فلا تسأل عنها مع الأصحاب والإخوان والأصدقاء، ولا عجب فهي أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهم قدوة الأمة وربان مسيرتها.

* * *

(١) انظر: «شخصية الرسول ﷺ في ضوء المقاييس الإنسانية»، د. عبدالحليم عويس، ص(٣٤، ٣٥).

الفـأل والظـن الحسـن

كان ﷺ يعجبه الفأل ويكره الطيرة والتشاؤم، وكان كذلك يحسن الظنّ بمن لا يُعهد منه السوء، وكذلك ينبغي للمسلمين أن يقتدوا بنبيهم إذ الفأل يدفع للأمام، ويشحذ الهمم، والظنّ الحسن يُريح الصدور، وهو مؤشر إلى سلامة القلب، ومن تأمل سيرته ﷺ وجد الفأل وحسن الظن واحدًا من معالم سيرته ﷺ كيف لا وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا «**ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة**»[١].

وفي قصة الحديبية ـ ورغم النازلة والضيق الذي أصاب المسلمين على أثر منعهم من العمرة كان ﷺ ملازمًا للفأل.

قال ابن القيم رحمه الله: ومن فوائد (قصة الحديبية) استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطيرة المكروهة؛ لقول النبي ﷺ لما جاء (سهيل): «**سَهُل أمركم**»[٢].

أما حسن الظن فيظهر في تعامله ﷺ مع مقولة المسلمين للناقة: (خلأت القصواء)، وقوله ـ دفاعًا عنها، وتبريرًا لحالها ـ: «ما

---

(١) ح(٥٧٥٦) كتاب الطب.
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٣٠٥).

خلأت القصواء وما ذاك لها بخلُق ولكن حبسها حابسُ الفيل».

قال العلماء: وفي ذلك جواز الحكم على الشيء بما عُرف من عادته، وإن جاز أن يطرأ عليه غيره، فإذا وقع من شخص هفوة لا يُعهد منه مثلها لا يُنسب إليها، ويرد على من نسبه إليها، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله[١].

قال ابن القيم: وفيه من الفقه، ردَّ الكلام الباطل ولو نُسب إلى غيرِ مكلَّف[٢].

وإذا وقعت هذه المدافعةُ منه ﷺ، وحسنُ الظنَّ بالدابة فما أحوجنا إلى هذا الأدب في حسن الظن والتعامل مع الأخطاء مع البشر إنه لا يعني التغفيل لكنه حسن ظن، وإقالةٌ للعثرة، وتغليبٌ للخير والمحاسن على الشرِّ والقبائح، ولو أسقط كلُّ أحدٍ بخطأ وقع فيه لما بقي أحدٌ صالحٌ للاعتبار، فلنترفق بإخواننا وبأنفسنا ولنحفظ حبل الودّ بيننا، وليكن حسن الظن أصلاً راسخًا في علاقاتنا وتعاملنا فذاك يسهم في وحدتنا، ولا يدع مجالاً للشيطان للتحريش بيننا، ولا يعني ذلك بحال ترك المناصحة، فالمؤمن مرآة أخيه، والمؤمنون نصحة، لكن هذا شيءٌ، ومحاولة الإسقاط وتصيد الأخطاء شيء آخر.

---

(١) «السيرة في فتح الباري» (٢/ ١٩٥).
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٣٠٢).

على أن حسن الظنِّ يتكرر ـ في الحديبية ـ مرة أخرى في تعامل النبي ﷺ مع عثمان حين بعثه رسولاً إلى مكة. . فظن المسلمون أنه طاف بالبيت وهم محصورون في الحديبية، فاعتذر له النبي ﷺ قائلاً: «**ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون**»، وفي رواية: «**لو مكث عثمانُ كذا وكذا سنةً ما طاف حتى أطوف**»[١].

وصدَّقتِ الأحداثُ حسن ظنَّ النبي ﷺ، فلما رجع عثمان رضي الله عنه قال له المسلمون: اشتفيت من البيت يا أبا عبدالله! فقال عثمان: بئس ما ظننتم بي، فوالذي نفسي بيده لو مكثتُ مقيمًا به سنة ورسولُ الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفتُ حتى يطوف رسول الله ﷺ، ولقد دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: كان رسولُ الله ﷺ أعلَمنا وأحسننا ظنًّا»[٢].

* * *

(١) «سبل الهدى والرشاد» (٥/ ٧٩).
(٢) السابق عن: «المنهج التربوي للسيرة النبوية» منير الغضبان (٢/ ٣٥٥).

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
لماذا الحديث عن هذا الموضوع	٣
دواعي الحديث	٥
خُلُق محمد ﷺ في القرآن والسُّنَّة	٨
أولاً: في القرآن الكريم	٨
ثانيًا: في السُّنَّة النبوية	١٠
ثالثًا: في السيرة النبوية	١٣
الكلمة الطيبة	١٦
النظرة الهادفة	٢٥
الابتسامة اللطيفة	٢٥
التوجيه الكريم والتلطُّف في القول وحُسن التعليم	٢٩
إكرام كرام القوم	٣٤
بين المداراة والمداهنة	٣٩
عدم المواجهة في العتاب والغضب والشدَّة في أمر الله	٤٥
الحلم مع الجهلة وتقديم ذوي السن والمكانة في المخاطبة وغيرها	٤٧
بسط النفس ومداعبة الأطفال	٥٠

تشجيع ذوي المواهب ٥٣
البر والوفاء ٥٦
الفأل والظن الحسن ٦٠
فهرس الموضوعات ٦٣

* * *